ارتسامات أولية حول عروض الملحون

هناك اختلاف بين بين الباحثين حول عدد بحور القصيدة الملحونة:

* فالأستاذ محمد الفاسي رحمه الله، يشير إلى أن عدد هذه البحور خمسة، ويحددها كالتالي:

ـ المبيت/ـ مكسور الجناح/ـ المشتب/ـ السوسي المزلوك/ـ الذكر

ويعطي توضيحات قيمة حول كل بحر من هذه البحور التي يسميها (المرمات).

* أما الدكتور عباس الجراري، فقد أشار إلى أن هذه البحور لا تزيد عن خمسة، حيث حذف بحرا من البحور التي ذكرها محمد الفاسي، والبحر الذي حذفه هو (الذكر).

* أما الشيخ الحاج أحمد سهوم، والأستاذ عبد الله الشليح رحمه الله، والشيخ أحمد بدناوي، فهم يرون أن عدد هذه البحور لا يخرج عن ثلاثة بحور وهي:

ـ المبيت/ ـ مكسور الجناح/ ـ السوسي، حيث قاموا بإلحاق (المشتب) بمكسور الجناح أو السوسي، وحذفوا بحر (الذكر).

* وبالنسبة لي شخصيا، أرى أن البنية الإيقاعية لقصيدة الملحون لا تخرج عن أربعة بحور وهي:

ـ المبيت/ـ مكسور الجناح/ـ المشتب/ـ والسوسي، حيث قمنا بتثبيت بحر (المشتب) اعتبارا من كونه يشكل بنية إيقاعية متفردة، وبعيدة كليا عن الشكل البنائي للقصيدة في مكسور الجناح أو في المشتب، كما أننا قمنا بإقصاء بحر (الذكر) الذي أدرجه الأستاذ محمد الفاسي، لأننا اعتبرنا (الذكر) غرض وليس شكلا بنائيا.

وإذا رجعنا للشكل البنائي الذي ظهرت عليه قصيدة الملحون في بداياتها الأولى، فلاشك أننا سنرصد هذه البدايات التي تشكل البذور الجنينية الأولى، والتي تتميز بكون القصيدة من حيث النظم لازالت مهلهلة، كما نجد عند مولاي الشاد الفيلالي (ق9هـ) في مقطوعاته التي نجد منها:

خُوكْ عَبْدَكْ وَأنْتَ دِيمَا لـْخُوكْ مَمْلوكْ * لا تْأدِيهْ الله يهدِكْ ما يأدِيكْ

لِكْ عَايَشْ وأنتايا لْهْ كتْعيشْ * لا تْكونُ وشِي طـُوبْ فْشِي بْنِي اهْشِيشْ

عِيشُوا بالله والنبي والقرآن مع الحديث

أو أنها لم تستطع التخلص من بقايا القصيدة الزجلية كما جاءتنا من الأندلس، والتي تستعمل الكثير من الفصيح، مما يسمى عند أشياخ الملحون ب(التبريص)، وكنموذج عنها قصيدة الشيخ ابن عبود الفاسي الذي كان على عهد الوطاسيين وبني مرين، حيث يقول في مطلع قصيدته المشهورة:

مَالْ الخيلِ اللي اعتَرْكتْ فالميدانْ * حَافتْ هَاذِي لـَذيكْ وْذيكْ الـهَادي

ولم يستقم الوزن ويأخذ شكله الرسمي النهائي المتميز إلا مع الشيخ عبد الله بن احساين الذي كان معاصرا لمولاي الشاد، وهو مثله من تافيلالت أيضا، حيث شق طريقا بالزجل المغربي جعله بعيدا عن النماذج السابقة، وكشف عن أصالته وانطلاقته من البيئة المغربية، حيث سماه "اقريض الملحون"، ويقول في إحدى قصائده التي تشكل البدايات:

نَبْدَا باسمْ الله انْظامِي يا اللي ابغَى لـُوزَانْ * لوزَانْ خير لي أنايا من قُولْ كانْ حتى كان
ربِّ اللي الهَمْنِي نمْدَحْ جَدْ لـَشْرَافْ يا لخْوَانْ * بالشعر السَّلِيسْ الفايَزْ هوَ يكونْ لي عُوَّانْ
حتى نْقُولْ مَا قالو عُشَاقْ النبي فكلْ ازْمانْ * ونْكونْ فَلقْريضْ الملحون أنَا المادْحُو حَسَّانْ
باللـَّوغْ واللـَّغا واللـَّغْوَ بينِ اللـَّهَا معَ لسْنَانْ * والحُبّْ ذْ الشفيعْ الشَّافَعْ فلقلبْ ذْ لدْخَالْ تْصَانْ
تاريخْ حُلتِي "رَخْلَ" عَدْ زْمَانها فكل ازمانْ * والقايلين كاعْ امْحَضْرَا وأنَا افقيههم وزَّانْ
وسْمِي افْلامْتِي عبد الله بن حْسَايَنْ الوزَّانْ * أ سَايْلِينْ عَنِّي فَاضْرَا عاصِي ومَعْدَنْ النقصان
وسْلام ربنا للشرفة وأهلْ الهْدَى فكلْ امكانْ * والنَّاظمينْ عن ميزاني واللي إيزيدْ لـُو ميزانْ

وهكذا سنلاحظ أنه من خلال قصيدته هاته قد حقق جملة من المعطيات غير مسبوقة في فن الزجل، جعلت قصائده ذات ميزة خاصة أطلق عليها فيما بعد اسم: "الملحون"، ومن هذه الإحقاقات التي رسخها عبد الله بن حساين في قصيدته المذكورة:

- إطلاق اسم على هذا النوع من النظم، حيث سماه ب: النظام/ لوزان/ الشعر السليس/ القريض الملحون.

- حدد موضوع هذا الشعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، معارضا بذلك شعر العبث الذي كان يروج في وقته، وهو شعر القصص والأحاجي وغيرها.

- أن شاعر الملحون لم يكن أميا ولم ينظم الملحون عن إعاقة، حيث ذكر شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت، فمن عرفه بهذا الشاعر؟

- حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم جعله يمدحه بأكثر من لسان (اللوغ: الأمازيغية/ اللغا: اللهجة الدارجة/ اللغوة: اللغة العربية المشرقية الفصيحة.)

- تحديد تاريخ نظم القصيدة التي سماها ب(الحلة)، وقد حدد تاريخ نظمها بالحروف الأبجدية (رخلة) التي لا تفك إلا بحساب الجمل: ف(الراء) بمائتين، و(الخاء) بستمائة أما (اللام) فالعدد الذي يقابله هو ثلاثين، ليكون التاريخ 830. أي القرن التاسع.

- نرجسية الشاعر: وتتجلى من خلال ذكر اسمه والفخر بذاته: واسمي فلامتي...

- تحديد الموقع الجغرافي الذي ينتمي إليه الشاعر: أسايلين عني فضرا...

- فتح المجال لمن سيأتي بعده للنظم على منواله، بل وابتكار أوزان واقياسات أخرى إن استطاعوا لذلك سبيلا: والناظمين عن ميزاني... باعتبار أن الملحون ما امقلد

وسنلاحظ أن هذه النماذج التي سبق ذكرها كلها جاءت في المبيت المثني الشبيه بالقصيدة الفصيحة.

والمبيت نوع من أنواع عروض الملحون، وهو النوع الذي نظمت فيهاغلب قصائد الملحون، وعدد بحوره حسب ما أحصاه محمد الفاسي 175 بحرا، أما اقياساته فكثيرة لا تحصى ونذكر من بينها:

1/ قياس المشركي: أو (لحويط لقصير)، وهو أكثر القياسات استعمالا في الملحون، حيث كان هو السائد في مجال النظم قبل ظهور (ماية الكباحي) على يد الشيخ عبد الجليل المصمودي، وأبياته تتكون من شطرين كل شطر يتكون من (10) مقاطع، وقد أعطاه الأستاذ محمد الفاسي الأرقام التالية:

ـ قياس (15)، وكنموذج عليه:

/ الناشفة للحاج الصديق الصويري

/ دمعة على يتيم لعبد المجيد وهبي

فالليالـي وعلـى عتبـة فبـاب شـي دار * ابلا امْغـطـَي نـايـم دري بـلا وسـادة

تحـت لفضا والجـوع اطـواه ذاق لمرار * بيـن لعبـاد إيـتـيـم اشريـد عاش مدى

/ ترحيل الشمس لمحمد بن علي المسفيوي

/ غيثني يا رسول الله لبن الفاطمي الركراكي

غيثـني يــا رسـول الله روح لــرواح * ادخيـل لك بالحي القـيوم عالـج الروح

/ الشيطانية لعبد القادر بوخريص

/ يا المولى تكفيني هول شر لصحاب لعباس بن بوستة

....

ـ قياس (15) أ: ومن نماذجه:

/ الزردة

يا الوالع بالزردة كـلْ كنْ بَطارْ * لا اتكون ابخيل، اتشَمَّرْ على الزرادي

/ فاطمة

/ الفصادة، وكلها لامتيرد

/ الواوية

يا الهاوي تهوى من لا يليه سطوة * تُبْ يا راسي وارجع للغني القوي

/ الإدريسية وهي لابن علي ولد أرزين

/ الإسرائيلية

/ التائية

اللعب من غير اشطارة فوق روس حربات * هكذاك مثلث ابنادم في اعشرتو

/ التوسل

/ الدار وهي لغبد القادر العلمي

ـ قياس (15) ب وهو ـ 7.(3). 10 وكنموذج عليه:

/ المعشوق لابن الفاطمي الركراكي

يا اعـلاج القلـب المحـروق * يا المعشـوق * لا اتهـون ابميسورك من الكيـد طلقه

والخلاصة: نجد في هذا القياس أنواع عديدة منها:

/ قياس (10/10) أو (9/9) ونجد فيه قصائد مثل فاطمة ـ الدار ـ دمعة على يتيم ....

/ قياس (9/10) قصيدة العزو للمغراوي

لاش ساكت يا من افْرَقْ أوجُوه لَحباب * هاتْ راسَكْ ليَ واجِي نْنَوّحُو

/قياس (7.(3).10) الباتول للسي التهامي

واكويت من اهواهم فادخالي * الله ينصرك أمّينة ويدوم عزك أ لغزال البتول

/ قياس (7.3.10) صلي على الرسول التاقي لابن ارقية:

....

/ قياس (7.3.7.3) مثلا: الصلاة على المهتدي لمحمد بن علي المسفيوي:

الصلاة على المهتادي * اضيا اثمادي * عين لهدى وروح افآدي * اشفيع لعباد

....

ومن أنواع المشركي هذا نذكر:

أ/ المشركي أبو ارْجل: وهو القياس (16) من المشركي، أي (10/10)، وكمثال عليه قصيدة :

ما انريد افراكك أ رَّايدَة افراكي * اشحال من زين اتعيبو خفتْ الزهاكة

وسنلاحظ أن الفرق بينه وبين المشركي الذي سبق أن ذكرنا أن (المشركي أبو ارجل) يمتاز بتقطيعين بالمد خصوصا التقطيع التاسع، فيكون تلحينه خاصا، وبالتالي لا يتضمن اعروبيات حيث أنها لا تتناسب مع تلحينه، بل تكون فيه فقط النواعر، (اهنية) للشيخ الجيلالي امثيرد، (الرامي والدامي) للكحيلي، (الزعرية) للمدغري....

ب - المشرقي المشقق، ويسمى التلمساني، وعددى تقاطيعه (9/9)

ج - المشرقي المرجل: وهو قياس (72) كما حدده الفاسي أي (13.(6).13) وكنموذج عليه الطبيب لابن اسليمان/ العزيزة لامثيرد

لله جود وانظر جرْحْ الذاتْ في تَقْرِيزَة + أ لالة عزيزة +
أنا في علرْ وجنتكْ والطرفْ الكحيل الغامزْ

القافية:

فاطمة شرح الله امعاك بين لريام * واش الحبيب يكافي بالجفا احبيبو

اللعب من غير اشطارة فوق روس حربات * هكذا مثلت ابنادم في اعشرتو